الوصولية في "الرجل الذي فقد ظله"

بقلم محمد محمود عبد الرازق

الاعداد الممتازة من الاداب تؤثر تأثيرا واضحا في سير الادب العربي وتطوره .. هذه ظاهرة لا يمكن انكارها .. فعندما صدر عدد يناير سنة ١٩٦٠ عن « الادب الثوري » ظل النقد بعده يقيم العمل الفني بمدى ثوريته او مدى تجاوبه مع الثورة .. وكذلك سارعت جمهرة الكتاب الى تراثها القديم نابشة تلال الكلمات علها تلتقي بحرف احمر ينير لها الطريق وتفاخر به غيرها .. وكان هذا التأثير واضحا ايضا في النتاج الادبي بعده ..

ومنذ صدور « الاتجاهات الفلسفية في الادب المعاصر » وهو العدد الذي ناقش علاقة الادب بالفلسفة ، والنقاد يفتشون عن فلسفة الكاتب في الفن والحياة من خلال اعماله التي يقومون بتقييمها ، سواء في ذلك الافصوصة او الرواية او المسرحية .. ولا ادعي ان ذلك قد صار ـ ديدنهم الا ان الواقع يبشر به .. وستظل الفكرة تؤرق الفنان العربي حينا من الدهر ، منقبا في تراثه ، باحثا في اغوار نفسه عن فلسفة لـه ..

ونحن اذا اجلنا النظر في اعمال فتحي غانم الروائية السابقة على « الرجل الذي فقد ظله » . نرى مدى اعتماده على انقلاب البيئة كفكرة رئيسية يدور من باطنها الصراع حتى نهاية القصة او الرواية . فائتلاف البيئة عند فتحي غانم يؤدي الى التناقض ، او على الاقل ، الى عدم الفهم وعبثية التلاقي .. ففي قصة « من أين ؟ » يقذف المؤلف بفتاة من القمر الى الارض ،وفي رواية « الساخن والبارد » يرسل من بلاد الشمس المحرقة ـ بلاد العرب ـ فتى أزرق الشعر ـ على حد تعبيره ـ الى بلاد السويد ..بلاد الثلوج والشقراوات .. وحتى في روايته الاولى « الجبل » نراه يدير الصراع بين اهل الجبل الذين يركنون الى كهوفه على امل وبين الحكومة التي تحاول اجبارهم على الانتقال الى قرية نموذجية حديثة .. وكذلك توجد شخصية «الخوجاية» التي تعيش « الجبل » مع اهله باحثة عن الذهب ..

فعنصر الدراما الذي يؤدي الى نمو الحدث وتطوره ، ويقوم على وجوده الاختلاف او المفارقة يتبلور عند فتحي غانم في اختلاف البيئة. وليس هذا عنده عنصرا فنيا يحتدم به الصراع ويشتد التشابك فحسب ... ولكنه في الواقع فكرة تكمن وراء قصصه ، وخطا رئيسيا يحقق وحدة النظر اليها ..

وتنتصر البيئة دائما فيترك البارد الساخن ، وتنفر القمرية من أخلاقيات الارض ، وينتصر المحقق لاهل الجبل ضد مهندس القرية

وهذه الفكرة .. نجدها ايضا في الجزء الاول من الرجل الذي فقد ظله وهو الجزء التي تحكيه مبروكه ... فالكاتب يلقي بهذه الصبية الريفية التي « لا ترى اللحم الا من العيد للعيد » الى قصر من قصور البرجوازية القاهرية لا ينقطع اللحم من مطبخه . فاذا ما مجها القصر فتاة يانعة ، ارتمت في وكر من اوكار الشيوعية وهي لا تعي مما يدور حولها شيئا . الا ان هذا الجزء بتكامله مع بقية الاجزاء الاخرى يخرجنا من نطاق هذه الفكرة الى نطاق جديد على روايات المؤلف .. فكما عاش البرتو مورافيا مجتمعة بحس الفنان ووعيه ـ واهدانا « السأم » . وكما عانى البير كامو من عبثية الحياة واخرج منها « الطاعون » ، تابع فتحي غانم مجتمعه في الخمس عشرة سنة الماضية .. شاهد النجوم التي تلمع والشهب التي تنطفيء واستقرأ الحوادث والاسباب التي أدت الى لمعانها وانطفائها ، ثم انتهى الى ان الوصولية هي الازمة التي يعانى منها العصر .. وهكذا كان « الرجل الذي فقد ظله » نجم من نجوم الصحافة تربع على عرشه الذي بناه من عظام ضحاياه غير عابىء بذي قربى او رحم محرم .. وكذلك الحال في شتى مناحي الحياة .. في الفن والمال والتجارة ..

وعلى سبيل الدلالة على ذلك ، عرض ثلاث حالات بنيت على اكتافها الرواية .

الحالة الثالثة : يوسف عبد الحميد السويفي (بطل الرواية)مشى فشلت لانها لم تعرف طريق الوصول .. او بمعنى اخر الطرق الانتهازية للوصول .

الحالة الثانية : سامية سامي .. عرفت طريق الوصول ، ولكنها فشلت عندما حكمت قلبها

الحالة الثالثة: يوسف عبد الحميد السويفي (بطل الرواية) مشى في الطريق الى نهايته حتى بز استاذه في الوصولية والصحافة ـ محمد ناجي .

اما عن مبروكة فمن الواضح ان هذه الفتاة التي طلقت حياة الريف واستمرأت حياة المدينة كان اخشى ما تخشاه ان تعود : الى القرية حيث الجوع والعري والعيش بلا امل . ولا نراها تطمع في بداية الامر في اكثر من « مكوجي » ويتضح انه لص يستغل الخادمات في السرقة « وكبرت .. وادركت مع كل هذه السنوات مركزي الحقيقي في البيت .. خادمة نسيت ماضيها ، تذكر امها واخوتها وقريتها . كانها حلم قديم .. حياتها كلها .. افراحها .. احزانها مرتبطة بما يدور في البيت .. » ومع مرور السنين ايضا كبر هدفها كما كبرت . « كنت اعرف ان ما بين سعاد ويوسف هو الحب ، وكنت اشعر بالغيرة نحو سعاد واقارن بينها وبيني انها ستتزوج يوسف ويصبح لها بيت مثل هذا البيت .. » اما هي فمن يحبها .. من يتزوجها . وتشبثها الان بحياة المدينة يلازمه تشبث بحياة القصر . لماذا لا تكون مثل سعاد ؟ « وخطر لي ان مدحت شاب وانا فتاة ـ اخو سعاد ـ وانه قد يحبني ويرغب في الزواج مني وسأترك معه هذا البيت : الى بيت اخر مثله ، ويكون لنا خدم وخادمات، لماذا لا يحدث هذا أهو كثير على الله ان يحققه» ولم يتحقق .. ضبطتهما سيدة البيت فطردت من الجنة ، وبطردها تبدأ المرحلة الثانية من حياتها .

الحياة في بيت يوسف : شعرت سيدة القصر ان قريب البك ـ من بعيد ـ المدرس الفقير ، رجل عجوز يحتاج الى من تخدمه فقررت نقلها الى بيته .. وعندما دخلت البيت شعرت ان المدرس العجوز والد يوسف خجل منها لتواضع مسكنه « فزاد كبريائي ونظرت حولي في ترفع كان البيت مقبضا ساكنا لا حياة فيه ، واحسست اني اكبر من هذا البيت .. اقوى منه .. » ومع ذلك فيوسف يصر عى اعتبارها خادمة . وكان لا بد ان تثور بعد ان لاحظت مدى اعتدادها بنفسها . وفي ثورتها تتزوج والد يوسف لمجرد أن تكون سيدة البيت لا خادمته. فيترك يوسف البيت ويموت الزوج مخلفا لها « ابراهيم » ويصبح يوسف محررا كبيرا في أشهر جريدة في البلد . وعندما تلجأ اليه لمساعدة اخيه يتنكر لها ويطردها الامر الذي دعا احد الرسامين بالجريدة الى العطف عليها ونقلها وولدها الى داره .

الحياة في وكر شيوعي : وكانت الدار اشبه بخلية شيوعية ـ بعد ان لاحظت في المرحلة الاولى من حياتها مدى اعتدادها بنفسها وتلك مزية لا تتوفر في الوصوليين . لاحظ هنا انه كان بامكانها ابلاغ البوليس عن الخلية وقبض الثمن . ولكنها لا تتنكر للاصدقاء ولا تضرب اليد التي أحسنت اليها ، فضلا عن قطعها كما يفعل الوصوليون ـ وارادت ان تثنى

شوقي الرسام عن مبادئه فرفض . ورغم عدم فهمها لشيء مما يدور حولها ساعدت شوقي الذي تحبه .. ومن اجل انها تحبه في شراء ماكينة رونيوم لطبع المنشورات .. ساعدته بالنقود التي كانت تحرمها على نفسها .. وترى انها من حق ولدها فقط ..

وتأتي نهاية الوكر على ايدي البوليس ويزج بشوقي في السجن وتضيع .. تمضغ المرأة في كلمات توجهها الى شوقي الذي غاب « كنا نعيش من اجل حلم ، من اجل كلمات تهمس بها رغبة خفية في صدرينا ... كنا نحلم بحياة جميلة ، وكنت طموحة في حلمي ، فكنت افكر في الايام الحلوة التي سنعيشها معا .. وانت ، كان طموحك اكبر فكنت تفكر في الاحلام الغريبة التي لا افهمها ، فتحدثني عن الايام الحلوة التي سيعيش فيها الناس جميعا .. وها هي نتيجة طموحك وطموحي، ايرضيك هذا .. ماذا اصنع الان ، انتهى كل شيء »..

فهذه اذن هي نهاية الطموح في عصرنا اذا ما اتبعنا طريق مبروكه ... اذا ما كنا مخلصين لاصدقائنا واحبابنا .. اذا اعتددنا بكبريائنا ورفضنا ان نعامل بغير ما نستحقه .. اذا لم نودع السجن من نحب...

ورغم ذلك .. رغم هذه النهاية المؤلمة لفتاة طموح ... رغم ترديها لتربية ولدها الذي لم ترض له الحياة بلا هدف في القرية.. رغم انهيارها وضعفها امام نفسها .. فهي قوية امام الناس ، تستطيع ان تهدم وليس من طبيعتها الهدم .. قوية امام يوسف .. يخشاها كما لم يخش احدا في حياته من كل الناس في حمايته وتحت امره ، لا مبروكة « مبروكة ليست في حمايتي ، انها تتحداني . البغي الخادمة لا تموت .. »

ويعتبر هذا الجزء ـ رغم النظرة التشاؤمية التي تسيطر عليه وتطوقه ـ من امتع اجزاء الرواية ... ومن ناحية الشكل يعد قصة متكاملة النسيج ، من الممكن ان تقوم بذاتها لو زال عنها بعض الابهام الذي يكتنف موقف يوسف.. هذا الابهام الذي جلته بقية الاجزاء الاخرى في تكرار ملح سنعود اليه فيما بعد ..

واذا كانت مبروكة هي الضحية الرئيسية ليوسف . فالضحية التي تليها في الاهمية هي الممثلة سامية سامي ، وهي انسانة طموحة ايضا تحلم بالمجد والشهرة عن طريق الاشتغال بالسينما ، ظهرت في ادوار صغيرة فاحتكت بالوسط الفني ووعته ، وفهمت انها لن تستطيع صعود سلم المجد الا بالتردي . الا اذا ضحت بكل شيء.. واثمن شيء وهي جميلة « ولكن جمالي كان هو العقبة التي سدت الطريق في وجهي ، ان دنيا السينما غابة مليئة بالذئاب .. كلهم ذئاب ، المنتجون والموزعون والمخرجون والممثلون والمصورون كلهم .. كلهم .. ذئاب .. حتى الصحفيون الذين يحومون حولنا في الاستديوهات .. » وعت الدرس.. ورضخت .. رضيت ان تكون الحمل الوديع في وسط هذه الغابة ، فهي لذلك تخرج مع انور سامي الممثل المشهور الذي منحها اسمه وبشرها بفتح ابواب المجد امامها .. وكل شيء له ثمن ، وهي تمانع الان في دفع الثمن ، لانها احبت .. احبت يوسف الذي ارتمى تحت قدميها معترفا بحبه فصدقته « من اجله تركت فرصة العمر ... ورفضت دور البطولة .. اما هو فما كادت تبرق امامه الفرصة حتى رفستني بقدمه .. وتركني اتدحرج وانحدر اسفل السلم ومضى هو يرتفع .. ويرتفع وحده .. لا اريد ان اخدع نفسي فأقول اني اكرهه واحقد عليه .. انا ما زلت احبه .. نعم احبه ! »

والوصولية الفاشلة هي الصورة الثانية لازمة العصر .. عرفت طريق الوصول .. عرفت انها يجب ان تكون العمل في وسط غابة من الذئاب ورضيت ، ولكن ازمتها انها حكمت قلبها .. عندما حكمت قلبها تمرغت في التراب ... هوت .. عندما احبت ضيعت فرصة العمر .. وقد يقول البعض : ذلك لانها احبت وصولي ، ولكن الرجال الذين كانوا يحيطون بها لم يكن فيهم من هو افضل من يوسف بالنسبة لعلاقته معها، او نيته تجاهها رغم اختلاف مشاربهم وتباين الوانهم ، مدحت ، انور سامي ، محمد ناجي ، يوسف السويفي ..

فاذا ما انتقلنا الى شخصية هذا الاخير ، البطل الذي اهدر ماء وجهه في سبيل وصوله ، وجدنا انه الوصولي الناجح ، رمز ازمة العصر الحديث .. تنكر لاقاربه واصدقائه واساتذته .. قبل اباه بهجرة اياه واستحى ان يبلغ محمد ناجي بموته خشية حضوره الجنازة وكشف فقره . تنكر لاخيه وزوجة ابيه ، وشى بزميله الرسام الشيوعي وسجنه ، وشى بزميله وكيل النيابة ونقله ، انتزع الكرسي من تحت أستاذه في الصحافة الوصولية وتركه يهوي امامه ، حطم حبيبته فتردت في هوات اليأس ، تركها في اليوم المحدد لعقد قرانه ليحرز نصرا صحفيا على اثر انقلاب حسني الزعيم .. على اشلاء الضحايا اضحى رئيسا لتحرير اكبر جريدة يومية في الشرق ، وكبير مفكري العصر .

تلك هي مشكلة العصر .. لا نجاح الا باتباع طريق يوسف .. الثعلبية والانتهاز .. ومع ذلك فالكاتب لا يرضى عن هذا الطريق ، فمصير الوصولي احد امرين : ١ ـ اما ان يهوى كما هو محمد ناجي استاذ يوسف في الوصولية ، ٢ ـ واما ان يعيش مؤرق بخطئه ، معذب بمجده، يرهبه الناس خشية بطشه لا حبا فيه .. كما هو حال يوسف .

والهمس الذي دار حول هذه الروايه في مصر اكثر من النقد الذي كتب عنها ، بل انني لم اقرأ لها نقدا في مصر اللهم الا اذا كان ما ذكره سعد لبيب يعد من قبيل النقد .. فما سبب ذلك ؟ قال لي الاستاذ صبري العسكري محام الفنانة ماجدة انها فكرت في انتاج هذه الرواية للسينما ولكن الاصدقاء خوفوها من محاربة الصحافة لها .. فما زال بعض اشخاص الرواية يمارسون عملهم على الطبيعة حتى اليوم .

واخرون يهمسون بان فتحي غانم نفسه به ملامح دقيقة من شخصية البطل ..

ولم نكلف انفسنا مشقة السعي وراء حقيقة هذه التكهنات ، فما تهمنا لذاتها ، وما نقلنا بعض الهمسات الا للدلالة على مدى واقعية القصة وتأثيرها على قرائها ، فالكاتب الناجح هو الذي يجسم مشاعر مجتمعه ويشارك في ابرازها دافعا اياه الى الامام ، حتى يحس الانسان انه احد عناصر القصة او كان من المحتمل ان يكون من عناصرها ، فهي صورة متحركة حية لاحساساته واحساسات المجتمع الذي هو فرد فيه .. وليس معنى ذلك ان الرواية نقلت كما هي من الواقع والا لكان مجرد الة تصوير يسجل التجربة دون بلورة وصهر ، وهذا ما ينافي موهبه الخلق التي تميز الفنان عن عالم الاجتماع.. فعالم الاجتماع يستقرىء الحوادث ويبني نتائجه عليها دون انفعال بها اما الفنان الخالق فيختلف عمله كل الاختلاف عن مجرد التسجيل المباشر للخبرة ..

اما افتا القصة فهما التقرير والتكرار ..

فقد زخرت الرواية بالمقالات الصحفية والخطب المنبرية وبعض المواقف المفتعلة وخاصة موقف يوسف كلما حاول اقناعنا بتأنيب ضميره له .. وان كان الشكل الروائي قد مكننا من معرفة وجهة نظر كل شخصية الا ان جدة هذا الشكل على الكتابة العربية ـ واعني به تقسيم الرواية الى اجزاء ، يروي كل جزء احدى الشخصيات ـ قد اوقع الكاتب في رذيلة التكرار ، فكان يكرر الحدث الواحد من اوله اكثر من مرة لبيان وجهة نظر راويه وموقفه ازاءه الامر الذي قد لا يستغرق اكثر من سطرين او ثلاثة في نهاية الحدث او من خلاله ، وهذا يشكك القارىء في صدى ملاءمة الشكل للموضوع ويحتم على الكاتب اختيار شكل اخر يناسب موضوع روايته ، الا انني ارى انه من الممكن التمسك بهذا الشكل مع تجنب التكرار المخل ببيان وجهة نظر الرواية دون اعادة سرد الحدث مرة اخرى طالما ان القارىء على دراية به لسبق عرضه، وطالما ان الرواية كل متكامل وليست قصصا متناثرة غير مترابطة . وقد سلم الجزء الذي تحكيه مبروكه من هذا التكرار لكونه الجزء الاول . وكذلك الجزء الذي يحكيه محمد ناجي لقصره واختلاف طريقة عرضه عن بقية الاجزاء .

*

واخيرا .. فرغم ايماني بان نظرة الناقد يلزم ان تكون نظرة موضوعية بحتة ، دون تحيز لاحدى الشخصيات ، فاني اعتذر للقارىء لعدم مقدرتي على التخلص من حب مبروكه .. وقد يكون في ذلك تقصير للاطالة في الحديث عنها .. وان كنت ما زلت اعتقد انها جديرة ببحث مستقل..

حلوان ـ الجمهورية العربية المتحدة

محمد محمود عبد الرزاق